

تَفْصِلُنِي عَنْ سَوَادِ اللَّيْلِ الْمَتْرَبِّعِ عَلَى عَتَبَاتِ الْأَفْقِ. وَأَدْخُلُ بَيْنَ الْكُهُوفِ، وَأُعْلِنُ عَجْزِي عَنْ اسْتِيقَافِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الذَّاهِبَةِ كَخَشْخَشَةِ رِيحٍ. نَوْمٌ مَكْتَنَزٍ بِالْأَحْلَامِ؛ فَأَغْفُو عَلَى أَبْحَرَةِ الرَّعْتَرِ، وَصَوْتُ سَلَامَةَ بِنْتِ فَرَجٍ يُهْدِينِي: وَأُحِسُّ بِأَنَّ خَلْفِي مَجْرَاتٌ مُهَشَّمَةٌ تَدْفَعُنِي إِلَى مِيَاهِ مَضْطَرِبَةٍ؛ حِينَهَا أَدْرِكْتُ بِأَنَّ لِلْمِيزَانِ كِفَّةً ثَالِثَةً، الذَّاكِرَةَ الَّتِي بَدَأَتْ تَتَهَدَّجُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، وَعَصْرٍ مَغِيبٍ وَرَاءَ الْأَضْوَاءِ الْمَشْتَعَلَةِ الضَّارِبَةِ عَلَى وَجُوهِ الْمَارَّةِ وَالْمَرْتَكِزَةِ عَلَى نُغُورِ النَّسَاءِ الْمُنْبَهَرَاتِ بِمَا تَعْرِضُهُ الْمَتَاجِرُ مِنْ أَمْتَعَةٍ. عَلَى مَقْرِبَةٍ مِنَ الْمَشْهَدِ جَلَسَ رَجُلٌ كَهْلٌ شَاخِصًا بِبَصَرِهِ نَاحِيَةَ الْمَجْهُولِ، تَتَقَاطَرُ الْحَبَّاتُ الْمَرْجَانِيَّةُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ مَتَنَاغِمَةً مَعَ تَمْتَمَةٍ غَيْرِ مَسْمُوعَةٍ يَلْهَجُ بِهَا وَهُوَ زَائِعٌ الْبَصَرِ. التَّفْتَتُ إِلَيْهِ مَتَعَمَّدَةٌ: "مَسَّاكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ يَا أَبَا حَمْدَانَ". ابْتَسَمَ وَتَلَجَّجَتْ عَيْنَاهُ بِالْدمُوعِ مِنْ الْفَرَحِ لِسَمَاعِ صَوْتِهَا أَوْ بِفِعْلِ السِّنِّ رُبَّمَا. تَخَلَّلَ صَوْتُهُ الدَّافِيُ مَسَامَ سَلَامَةَ بِنْتِ فَرَجٍ، وَبِسْرَعَةٍ أَعَادَتْهُ إِلَى وَضْعِهِ، لَمْ تَلْحَظْ سَلَامَةُ ذَلِكَ التَّوْتُرَ الْبَادِيَّ عَلَى مُحْيَا النَّوْخَذَا، وَإِنَّمَا اِكْتَفَتْ بِصَوْتِهِ الَّذِي أَخَذَ يَسْتَعِيدُ طَرَاوَتَهُ بَعْدَمَا أَيَقَنُ بِأَنَّهُ لَيْسَ وَحْدَهُ فِي شَارِعِ سَكَّةِ الْخَيْلِ. مَدَّتْ يَدَهَا نَاحِيَةَ الْكَيْسِ بِسْرَعَةٍ، وَأَخْرَجَتْ حَبَّاتٍ كَهْرْمَانِيَّةً، وَنَثَرَتْهَا عَلَى رُقْعَةٍ مِنَ الْقِرْطَاسِ: تَقُولُ ذَلِكَ وَعَيْنَاهَا تَرْقُبَانِ خَلْجَاتِ النَّوْخَذَا الَّذِي أَخَذَ يَسْتَرْقُ النَّظَرَ إِلَى نَحْرِهَا. لُؤْلُؤَةٌ حَصْبَاءُ بَرَقَتْ فَجَاءَةً مِنْ وَرَاءِ الْأَرْهَافِ الَّتِي تُرْفَفُ عَلَى صَدْرِ سَلَامَةَ. كَانَ رَاشِدُ بْنُ نَاصِرٍ قَدْ أَهْدَاهَا لَهَا، أَوْ كَانَتْ ضِمْنًا (زَهْبِيَّتِهَا) عِنْدَ زَوَاجِهَا مِنْ سَعِيدِ بْنِ مَرْدِفِ الَّذِي فُقِدَ فِي الْبَحْرِ فِي أَثْنَاءِ مَوَاسِمِ السَّفَرِ. وَهَكَذَا بَقِيَتْ وَحِيدَةً تَنَاطَرُ النَّوْخَذَا رَاشِدًا مِنْ خَلْفِ الْبُرْقُعِ لِأَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِينَ عَامًا. كَانَ يَوْمًا حَارًّا قَائِظًا مِنْ صَيْفِ تَمُوزَ عَامَ 2002 عِنْدَمَا زُرْتُ شَارِعَ سَكَّةِ الْخَيْلِ، وَأَغَادِرُ السُّوقَ مَحْمَلَةً بِالْدَّعَوَاتِ وَبِأَكْبَاسِ الْأَعْشَابِ وَالْأَدْوِيَةِ، أُكَدِّسُهَا سَنَةً بَعْدَ أُخْرَى، فِي ذَلِكَ النَّهَارِ مِنْ سِبْتَمْبَرِ عَامَ 2004، فَقَطُّ لِأَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُخْبِرَهَا بِأَنِّي عُدْتُ "عِنْدَمَا تَعُودِينَ إِلَى الْبِلَادِ لِأَزِمِ أَعْرِفْ عِلْشَانَ أَفْرَحَ بِنَجَاحِكَ". فِي ذَلِكَ النَّهَارِ لَمْ يَكُنْ رَاشِدُ بْنُ نَاصِرٍ قَابِعًا عَلَى دِكَّتِهِ كَالْمَعْتَادِ، وَلَمْ تَجْلِسْ سَلَامَةُ بِنْتُ فَرَجٍ فِي الرُّكْنِ الْمَقَابِلِ لَهُ، فَرَاغٌ دَامِسٌ يَلْفُ شَارِعَ سَكَّةِ الْخَيْلِ، فِي ذَلِكَ النَّهَارِ الْغَامِقِ لَمْ تَكْتَحِلْ عَيْنِي بِرُؤْيَيْتِهِمَا، قَبْلَ أَنْ تَخْطُرَ (نَاتَالِيَا) فِي الشَّارِعِ الْمَمْتَدِّ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْعَامَّةِ شِمَالًا حَتَّى الْعَبْرَةِ جَنُوبًا.